

تراثنا من فجر اليقظة
إلى العصر الحاضر

- بعد ليل طويل
- في دوامة العصر

obeikandi.com

بدأ التفاتنا إلى تراثنا مع حركة اليقظة التي لاحت بوادرها في القرن الثامن عشر ، حيث أدرك رُوادها أن ارتباط اليقظة بمجديد الغرب وحده ، يفقدها عنصر الأصالة الذي ترتب به صحتها وسلامتها . وقدروا عقم الحركة إن هي اقتصرت على مجلوب مستعار لا تربطه صلة بجذورنا الضاربة في أعماق الزمن .

في الوقت الذي قدروا فيه جدوى اتصالنا بالحضارة الغربية الحديثة ، وضرورة إمداد حياتنا بروافد منها تُوجِّه تيار اليقظة مع روح العصر ، وتغذى وجودنا بثمار التقدم ، وتسائر به تطور الزمن .

ولم تنفصل حركة إحياء التراث عن حركة اليقظة القومية ولا قامت بمعزل عنها ، وإنما كانت عنصراً أساسياً في برنامجها ، وموقعاً من مواقع النضال في الميدان العام الذي تقاسمه الرواد فيما بينهم .

وفي كل مجال ، كان الاهتمام البالغ باستقراء ماضى تاريخنا ، لا قصداً إلى الرجوع إليه والوقوف عنده ، وإنما كان القصد إلى الانطلاق بالأمة من حيث انتهت مراحل سابقة أعطتها كل ميراثها وكل تجاربها .

ومن واقع تاريخ اليقظة ، نرى أن مهمة السعى لاكتشاف جوهر ذاتنا والبحث عن جذورنا ، لم يحمل عبئها الأمسيون الذين يعيشون بعقلية الماضي، وإنما نهض بها عصريون مجددون ممن اتصلوا بالغرب الحديث أوثق اتصال، ونهلوا من موارد ثقافته.

فالشيخ « رفاة الطهطاوى » إمام البعثة العلمية الأولى إلى باريس ، نقل إلينا ما نقل من حضارة الغرب ، وحرص في الوقت نفسه على أن يجمع ما استطاع من مخطوطات تراثنا ، عمرت بها خزانة كتبه في سوهاج .

والإمام « الشيخ محمد عبده » الذي ألقى به الصراع السياسى فى أوروبا حيث عاش زمناً يتابع جهاده من هناك ، هو نفسه الذى عكف على القرآن الكريم يفسره بعقلية جديدة ، ويلتمس منه أصول الدعوة إلى تحرير الفكر الدينى والإصلاح الاجتماعى والسياسى . وهو الذى جعل مطبعة بولاق الأميرية تدور لطبع ذخائر من تراث العربية .

وشيخ العروبة « أحمد زكي » عاد من أوروبا بعد أن تزود بالثقافة الغربية ، ثم لم يلبث أن قام برحلات عدة إلى الخارج ، باحثاً عن كنوز تراثنا ، وناقلاً إلينا ما استطاع نقله منها .

والعلامة « أحمد تيمور » العصرية الثقافة والنشأة في جيله ، هو الذى أنفق ماله بسخاء على ذخائر المخطوطات العربية ، ووهب لها حياته جامعاً ودارساً .

* * *

لم تكن حركة إحياء التراث إذن ، والدعوة إلى الاتصال بقديمنا ، صخرة رجعية يلتقى بها الأمميون في مجرى تيار اليقظة والتقدم ، بل كانت بشهادة الواقع التاريخي مدداً سخياً لهذا التيار ، أراد به المصلحون المجددون تعميق مجراه ، وتأمين حيويته وسلامته ، بصلوره عن نبع أصيل في أرضنا الطيبة .

وبفضل أولئك الرواد شهدت الفترة التي أعقبت ثورة عرابي ، حركة إحياء للتراث أخذت مجراها في ناحيتين :

أولاهما: نشر ذخائر المخطوطات مما جُمع في مكتبة الجامع الأزهر ، وفي دار الكتب المصرية التي نُقِل إليها ما كان مبعثراً من تراثنا في المساجد والزوايا . كما نشرت ذخائر مما جمعه رفاة الطهطاوي وأحمد زكي وأحمد تيمور . فأخرجت مطبعة بولاق ومطبعة دار الكتب عدداً غير قليل من أمهات الكتب العربية إلى جانب ما أخرجته المطابع الأهلية ، ومطابع الشام والعراق والمغرب .

والأخرى : إمداد حياة الأمة في مختلف نواحيها ، بزاد سخى من ماضيها في عصور القوة . كمثل ما فعل الشيخ محمد عبده في تجديد الفكر الديني ، وقد كان هو الذى زود « قاسم أمين » بأصول إسلامية لدعوته إلى تحرير المرأة . ومثل ما فعله « البارودي » رائد الشعر الحديث ، حين اتصل بتراثنا الشعري في عصور القوة والازدهار ، لينطلق بالشعر على معبر التطور نحو عصر جديد (١) .

* * *

(١) راجع محاضرة : أدبنا المعاصر ومنطق التطور ، في كتابي « قيم جديدة للأدب العربي » ص ١٩٩ وما بعدها . ط معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ ، ودار المعارف ١٩٧٠ .

ونقدر أن هؤلاء الرواد حين أرادوا تدعيم حركة اليقظة بأصول من تراثنا ، ألفوه مبعثراً في شتى أنحاء الدنيا . فعجزوا عن استيعاب ما في خزائن الغرب منه بل عجزوا كذلك عن أن يحيطوا علماً بما بقي لنا من ذخائره . ومنها ما كان مدفوناً في خزائن خاصة لا يدرون عنها شيئاً ، أو مخزوناً في سرايب الجوامع وأقبية القصور ، أو مكدساً في كهوف اليمن ملكاً خاصاً لحكّام من الأئمة لا ينتفعون به ولا يريدون له أن ينفع الناس .

فلا غرابة ولا ملام أن قصر جهد الرواد في فجر اليقظة ، على جمع ما أمكن جمعه من مخطوطات التراث ، وصيانتها في مكباتهم الخاصة أو في مكبات عامة تتيح فرصة الانتفاع به ، ونشر عدد غير قليل من ذخائره أدت دورها في حركة اليقظة القومية بقدر ما واتت ظروف المرحلة وأعانت طاقتها .

* * *

ومضى جيل الرواد ، وترك هذه الأمانة في أعناقنا ، نفي بها على المستوى الذي بلغه نضج وعينا ورشد إدراكنا وتقدم الزمان بنا ، وعلمنا بما بذل المستشرقون وما لا يزالون يبذلون من جهد وعناية بهذا التراث . انطلقت حركة اليقظة القومية للعرب ، تغذ السير مع العصر الحديث .

ولم يغب عن وعى الأمة ما حاوله رواد اليقظة من إحياء تراثها . فتقدم إلى الميدان خلف لهم من علماء العربية والإسلام ، تابعوا نشر ذخائر من تراثنا ، كما قامت هيئات علمية رسمية بنصيب من هذا العبء ، فنشرت دار الكتب المصرية والمجمع العلمي العربي بدمشق والمجمع العلمي ببغداد ، بضع مئات من أمهات الكتب في اللغة والأدب وتاريخ الإسلام والتفسير ، كما اهتمت دور نشر خاصة بطبع عدد منها .

ومن ناحية أخرى ، كانت الجامعة تدعو إلى منهج علمي لتحقيق التراث . ويذكر تاريخ كلية الآداب بجامعة القاهرة أن أستاذنا أمين الخولي فرض هذا المنهج على طلبة الامتياز بقسم اللغة العربية ، ثم ألزم من يتقدم منا إلى درجتي الماجستير والدكتوراه ، بأن يقدم مع بحثه نصّاً محققاً لمخطوط من تراثنا يتصل بموضوع الرسالة .

قصداً إلى تزويد الأمة بعدد من المتخصصين ، يحملون أمانة تحقيق تراثها ، ويسدون الفراغ الذي بدأ تجار الكتب يقتحمونه ويوردون إليه نصوصاً مطبوعة من تراثنا ، لم تخضع في نشرها لأى ضابط من ضوابط التحقيق يحميها من العبث والتشويه .

ويمكن القول بأن وضع التراث في تلك المرحلة التي أعقبت فجر اليقظة واستغرقت النصف الأول من القرن الحالى ، كان يساير الوضع العام للأمة ، ويلبي حاجته ، ويشوبه ما شاب وجودنا من مظاهر القلق والاضطراب .

والمرحلة يعرفها تاريخ الأمة العربية ، مرحلة استجماع للقوى وتأهب لمعركة تحقيق الذات ، وتحفز للانطلاق الثورى ضد الاستعمار .

ويعرف كذلك ما تعرضت له من هزات القلق الجائح وهي تحاول أن تتلمس طريق الخلاص ، وما عصفت بها من تيارات متدافعة متضادة ، تأتيها من داخل ومن خارج ، وتضغطها بين شد وجذب .

وإذا كان استمرار الجهود لإحياء التراث ، والدعوة إلى تأصيل المنهج العلمى لتحقيقه ونشره ، واتجاه الكبار من كتاب المرحلة إلى إذاعة المطوى من أجماد تاريخنا وبطولات ماضينا ،

أقول إذا كان هذا ومثله ، معبراً عن وعى المرحلة وإصرار الأمة على حماية مقومات وجودها وعناصر أصالتها ،

فكذلك كان ترك مجال التراث مستباحاً لغير أهله ، والغفلة عن الثغرات التي يتسرب منها إلى الغرب ، مظهراً لما كان يعوز المرحلة من وضوح الرؤية لأبعاد معركتها الكبرى .

فتركنا مخطوطات تراثنا بضاعة مبنولة لتجار السوق ، يستبيحون كل ما لها من حرمة علمية ويهدرون كل قيمة أثرية لها ، من حيث هى مادة للتاريخ ! وتركنا الأجانب يجوسون خلال الديار بحثاً عن المخطوطات . ويخرجون بما يشرون منها على مرأى منا وسمع !

لأننا لم نصور أن هذه المخطوطات تدخل في الآثار التى يتكفل القانون

بمحايتها ، فلسلطة الجمرک أن تصادر مثلاً قطعة من نسيج أثري أو وعاء من مخلفات عصر ماضي ، كيلا يخرج من ديارنا ،

ولا تصادر عشرات من المخطوطات يخرج بها الأجنبي من بلادنا في ضوء النهار !

وكان مناط الأثرية في مثل "حجر رشيد" مادته الحجرية ، وليس النص المقوش عليه !

وكان المخطوط ليس أثراً ، لا بنصه فحسب ، ولكن كذلك بخطه ومداده وورقه وغلافه . . . حيث يعطينا كل هذا مادة لتاريخ عصره وبيئته ومجتمعه ! !

* * *

ومع النصف الثاني من القرن العشرين ، حيث تبدأ المرحلة الحالية من تاريخنا المعاصر ، انفصلت حركة إحياء التراث عن مد الحركة القومية ، فبدأ هذا الانفصال شذوذاً في منطق الحياة وسنة الوجود .

لكننا بقدر من التأمل الفاحص ، نستطيع أن نلمح تفسير ما يبدو لنا شذوذاً ، وعلّة ما يبدو لنا صدفة واتفاقاً :

لقد كان من الطبيعي أن تتجه الأمة بكل طاقتها إلى معركة التحرير ، حسماً للمأساة الاستعمارية وعار الاحتلال .

وكان من الطبيعي كذلك أن يستغل عدوُّنا غفلتنا عن الموقع الفكري ، فيعجّل له جنوداً لا نراهم ، أو قد نراهم فلا نرتاب فيهم !

وانكشف الميدان لغزو فكري جائح ، خطط له الاستعمار بمهارة ودهاء ، وسهر على الإعداد له في ليلنا الطويل .

وكان من أخطر أسلحته ، ما أورثتنا المرحلة الماضية من تصدع ثقافي ، أثراً لتفاوت البيئات الفكرية والتعليمية التي نشأ فيها جيلنا ، وتلقى منها زاده العقلي والوجداني .

« فنحن جميعاً - كما قلت هنا في محاضرتي بالموسم الماضي عن المناخ الفكري

لأدبائنا المعاصرين - أبناء جيل أعوزه التعاضد الثقافي في مرحلة التلقّي والتكوين والتأثر : فينا من تلقى زاده الأول من نبع عربي شرقي صميم ، حصّنه ضد تيارات الفرنجة الوافدة . وفينا من لا زاد له إلا الفكر الأجنبي وقد أمضى مرحلة الحضانة العقلية والتكوين النفسي في بيئة عزلته عن وجود أمته .

وفي دوامة الصدام بين هؤلاء الغرباء ، لف تراثنا غباراً أكثف مما ألقاه عليه طولُ الإهمال .

وتداعى السائرون غرباً ، ممن ينتحلون لأنفسهم صفة العصرية ، إلى التخلص تماماً من عبء تراثنا الذي يشغل كاهلنا ويعطل خطانا على مراقي التطور .

واستكثروا ما ينفق عليه من جهد ضئيل مبغر ، وهم لا يرون فيه ، وفي ماضيها كله ، إلا أكفان موتى وأضرحة قبور ، يفسد ريحها مناخ العصر .

وجهروا بأن فيما نعلق به من ميراثنا الروحي والتاريخي « وقفة جامدة على مقابر الأنبياء ، تحاول أن تزج بمجتمعنا داخل صناديق حديدية صغيرة لا تتسع إلا للدمى ، في طفولة الجنس البشري » (١) .

وشقت هذه الدعاوى مجراها في وجودنا المعاصر ، يؤازرها تدفق التيارات الوافدة التي فتحوها لها الأبواب ، بوهم أن وجودنا العصري يتطلب أن نستعير كل ثقافتنا وفكرنا وأدبنا من الغرب القوي الغالب .

وفي غفلة عن الموقع الفكري ، بما شغلنا من أعباء التنمية ومعارك تصفية الاستعمار والقرصنة الدولية والمؤامرة الصهيونية ،

تدفق جنود الاستعمار الجديد ، وقد ارتدوا أقنعة خدام علمٍ ورسل ثقافة ومبشرين بالتفاهم والتقارب بين شعوبهم وبيننا!

وغزتنا مؤسسات ثقافية أجنبية قوية النفوذ ، بعضها يعتمد على ذكاء الحيلة وبراعة الخبرة ، وأخرى فاحشة الثراء تعتمد على كرم البذل وسخاء العطاء ، والاقنطار على وسائل النشر وأقانين الدعاية والإعلان .

(١) انظر ص ٢٢٣ وما بعدها ، من (قيم جديدة للأدب العربي) ط معهد البحوث والدراسات

العربية ١٩٦٧ . ودار المعارف ١٩٧٠ .

دون أن تكون هناك أدنى فرصة للتكافؤ بين فكرنا القومي الأصيل وبين هذ
البضاعة الأجنبية الوافدة ، تُدق لها طبول الدعاية وأجراس الإعلان ، وتتألق في
طبعتها الأنيقة الفاخرة ومظهرها الفخم الحلاب ، معروضة للبيع بأرخص الأسعار ،
أو موزعة هدايا بلائمن ، لأنها تصدر عن « مؤسسات غير تجارية » مهمتها أن
تنفق وتنشر وتغزو ، وليس في حسابها أن تحقق أى ربح مالى مباشر .

• • •

ولكن الأمة لم تفقد وعيها في دوامة هذا الضجيج المادى .

وهي إذ تدرك استحالة العزلة الفكرية في عصر (الترانستور) الذى يحمل إلينا أنفاس الغرب عبر المسافات الشاسعة بأسرع من لمح البصر ويجرى الخيال ، تدرك كذلك ألا بأس عليها فى أن تفتح الأبواب والمنافذ لشتى التيارات الوافدة ، على شرط أن يكون لفكرها القوى كيان راسخ أصيل متميز ، لا تمسخه الطوارئ ولا تزلزله الريح . ولا يفوتها أن تفرق بين روافد تأتينا من الخارج فتحصّب وجودنا الفكرى وتزيد ثقافتنا رحابة واتساعاً ، وبين أن تطغى هذه الروافد على المجرى الحيوى الأصيل فتبدده أو تطمره .

وأن تميز بين الخصبات المستوردة ، وبين النبات المزروع فى أرضنا من بذرة تستمد مقومات حياتها من عناصر التربة المحلية .

وهي بحيث تعى أيضاً ، أن حرية الفكر تقضى بأن يكون لإنسان العصر حق الانتماء إلى أى مذهب أو مدرسة . لكن هذه الحرية تغلو زيفاً وضلالاً ، وتمسخها أغلال الرق ، إذا لم تكن للإنسان أهلية الاختيار الحر الرشيد . وهذه الأهلية لا يمكن أن يدعيها من يجهل الشخصية المعنوية لأمتة ، ويعوزه فهم فكرها القوى بكل ما له من خصائص مميزة ، وكل ما له من ميراث قوى تلقاه من آباء له وأجداد ، منذ خطوتهم الأولى على درب الوجود .

ذلك لأنه لهذا الجهل ، يكون عرضة للغواية والتضليل ، والفتنة والاستهواء ، والاستعباد لما يتسلط على عقله ووجدانه من غزو ، دون مناعة أو رشد .

وبخاصة بعد أن انحرفت المعركة الفكرية فى دوامة العصر ، عن صراع قيم ومبادئ ، إلى سباق على استعمار جديد ، وتنازع على مناطق النفوذ ، الغلبة فيه لا ترهن بقيمة المبدأ أو قوة الفكرة ، وإنما ترهن بمكر الحيلة ودهاء الأسلوب ، أو براعة الدعاية وسخاء الإنفاق .

* * *

وآية هذا الوعي القومى ، ماتداعى به الأمة العربية من إعادة فهم تاريخها وكتابتها ،

لتحريره مما شابه من تشويه وحذف وبتر . وهى مهمة جلييلة لا يمكن أن تتم بمعزل عن تراثنا الذى هو مادة لهذا التاريخ .

ولاحت على أفقنا الثقافى القومى بوادر استجابة للدعوة إلى تعديل " قانون حماية الآثار " بحيث يكفل حماية مخطوطات التراث^(١) .

كما جددت الهيئات العلمية فى أقطار الوطن العربى ، فى إحياء تراثنا ، فنشرت وزارة الثقافة بمصر مخطوطات هامة من كتب اللغة والأدب وتاريخ الإسلام ، وشارك المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى هذه الحركة ، بنشر عدد من كتب تراث الإسلام ، ونشر المجمع العلمى بدمشق ، والمجمع العلمى ببغداد ، ووزارة الأوقاف بالمغرب ، ذخائر أمهات كتب اللغة والأدب والفقهاء ، كما تقدم الكويت إلى الميدان ببذل له بسخاء .

ووجه معهد المخطوطات عنايته إلى تصوير مخطوطات من خزائن الكتب العربية فى الشرق والغرب :

وشاركت بعض دور النشر الكبرى فى هذا المجال ، فنشرت « مؤسسة دار المعارف » بالقاهرة سلسلة ذخائر العرب ، واتجهت تطوّل « مكتبة المنى فى بغداد » إلى ما نشر المستشرقون من أمهات كتب تراثنا ، فأعادت نشر ما نقد منها ، مطبوعاً بي (الأوفست) .

• • •

ونذكر هنا لوزارة الثقافة بمصر ، مبادرتها إلى إنشاء مركز لتحقيق التراث فى دار الكتب على غرار معهد الآثار ، يزود الوطن العربى بخبراء التراث ، ويرجى أن يكون مركزاً عربياً عالياً لبحوث تراثية رائدة ، على ما سوف نعرض له بمزيد تفصيل فى ختام هذه المحاضرات .

• • •

(١) بعد إلقاء هذه المحاضرات ، نشرت صحفنا فى شهر ديسمبر الماضى مشروع هذا القانون المرجو ، تقدم به السيد « الدكتور ثروت عكاشة : وزير الثقافة » إلى مجلس الأمة .
تراثنا

ولا بأس بهذه الجهود كلها ، لولا أنها مبعثرة يعوزها التخطيط الذى ينسجها ويوجهها ، بما يحقق التكامل بينها ، ويحميها من الفوضى والارتجال ، ويحدد لكل هيئة منها دورها فى إحياء التراث .

ويحدونا رجاء كبير فى أن يزداد وعينا لقيمة تراثنا عمقاً ورسوخاً ، بحيث يساير وعينا القومى ، ويستوعب كل ما ترك لنا أسلافنا فى شتى فروع العلم والمعرفة ، لا يقف بها عند عصور تاريخنا الإسلامى ، بل يمتد مع ماضينا موغلاً فى أعماق الزمن .

وقد تسألون عن تراثنا في الغرب المعاصر ، فأقول : إنه ما زال يجد هناك حظه الوافر من العناية والاهتمام . ودخلت حركة الاستشراق في مرحلة جديدة تريد مزيداً من التفهم لعقليات الشعوب الشرقية وأمزجتها .
وقد ترى فيه ما يدعم دعوة العصر إلى الإخاء الإنساني والتفاهم بين الشعوب خادمة للسلام .

لكنها في الوقت نفسه ، ما تزال تمد الصراع المذهبي بأسلحة قوية من فهم شعوب الشرق ، وتزوده بدعاة يتكلمون بلغات هذه الشعوب ولهجاتها ، فما من لغة شرقية أو لهجة من لهجاتها ، لا تجد هناك — فيما أرجح — من يتقنها من القوم ويتبرجم منها وإليها .

أذكر أننا في المؤتمر الأول للكتاب الآسيويين والإفريقيين الذي عقد في طشقند سنة ١٩٥٨ ، قررنا أن يُسمح لأعضاء الوفود بإلقاء كلماتهم بلغاتهم القومية ، وكان اللافت حقاً ، أن لجنة تنظيم المؤتمر وجدت لكل هذه اللغات الإفريقية والآسيوية ، وقد بلغ عددها نحو ستين لغة ، من قاموا بالترجمة الفورية من كل لغة ، إلى الروسية والعربية والإنجليزية والفرنسية .

كما وجد أعضاء الوفود — ومنهم من لم يكن يتكلم بغير لسانه القومي — مرافقين يتحدثون معهم بلغاتهم .

ولم تثر الظاهرة اللافتة دهشتنا ، بعد أن زرنا معهد الدراسات الشرقية في موسكو ، ووجدنا ما زُود به من أجهزة الصوتيات وأشرطة سجلت عليها اللهجات الشرقية . يتدرب عليها من يُعدهم المعهد لتأدية حاجه الاستشراق المعاصر .

* * *

ويقول المستشرق الروسي « جريجورى شرباتوف » في مقال له عن « دراسة المخطوطات العربية في الاتحاد السوفيتي^(١) » . بعد بيان جهود الرواد من مستشرقى الروس :

(١) نشر بالمحق الأسبوعي لأهram الجمعة : ١٩٦٣/١/٤ .

« وبدأت مرحلة جديدة من مراحل دراسة المخطوطات العربية في بلادنا بعد ثورة أكتوبر الكبرى . وأدى التغير الجذري في الحياة العلمية إلى اتساع الدراسات الشرقية وإقامة مركزى استشراف كبيرين في لينينجراد وموسكو ، وكذلك تأسيس مراكز علمية في جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز . وفى كل من هذه المناطق تنشط حركة جمع ودراسة المخطوطات الشرقية والعربية خاصة ، كما تغيرت وتحسنت ظروف حفظ المخطوطات فيها ، وتكونت مجموعات المخطوطات العربية فى مختلف المدن : طشقند وباكو وتبليس وخاركيف . . . ، وأضحى مجموعتها المخطوطات فى معهد الاستشراف بطشقند عاصمة جمهورية أوزباكستان ، وتضم هذه المجموعة ثمانين ألف مخطوط بالعربية والأوزبكية وغيرهما من اللغات الشرقية . وأقدم مخطوطة عربية فى هذه المجموعة ترقى إلى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) . وفى السنوات الخمسينية صدرت أربعة مجلدات فى وصف مجموعة طشقند ، تتناول أكثر من ٢٧٠٠ مخطوط فى التاريخ وعلم الطبيعة والطب والجغرافيا والزراعة والفلسفة والآداب واللغة . وفى لينينجراد أيضاً ، طبع فى السنوات الأخيرة جزءان من (كتالوجات) المخطوطات العربية فى معهد شعوب آسيا : الجزء الأول فى الأدب النثرى ، والثانى فى الجغرافيا . ويعد الآن اللطبع جزءان آخران فى وصف مخطوطات الشعر العربى ، ومؤلفات التاريخ والسير ، ومخطوطات الطب . كما نشر هناك دليل للمجموعة العربية فى مكتبة لينينجراد . أما المجموعات العربية فى المدن الأخرى كموسكو وباكو وتبليسى وخاركيف ، فوجدت وصفها فى أعمال المستشرقين : ج تسيرتيللى ، و م . ساليه ، و ا . كوفاليدوفاليسكى وغيرهم .

« وعلى غرار العلماء المستشرقين الروس للقرن التاسع عشر ، واصل ويواصل المستعربون^(١) السوفييت الدراسة الدائمة للمخطوطات العربية ، ولم فى هذا الميدان ما نفتخر به من كشف وتحليل وطبع المخطوطات البالغة القيمة ، وأسماء هؤلاء العلماء كثيرة ، فنذكر منها : إ . كراتشكوفسكى ، ف . إيرمان ، أ . بوريسوف ، ف . بيليايف ، ب . بولجاكوف ، إ . خالدوف . . .

(١) شاع فى عصرنا استعمال هذا الاشتقاق ، تمييزاً للمستقلين بالدراسة العربية من المستشرقين . وهو فى مصطلحنا التاريخى ، تمييز العرب المستعربة ، عن العرب العاربة .

« . . . وما يجدر ذكره أن لعلماء بلادنا فضل الكشف عن مخطوطات لم تعرف من قبل . وخاصة ما كان منها بخط مؤلفها، مثل مخطوط الأمير السورى "أسامة ابن منقذ" المعروف باسم (كتاب المنازل والديار) وهو يتضمن مجموعة غزيرة من الأشعار فيما بين القرنين السادس والثاني عشر ، وفي السنة الماضية نشر في لينينجراد النص الكامل لهذا المخطوط ، باللغة العربية .

« ويجدر بنا أن نشير إلى اكتشاف "ف . بيليايف" مخطوطة مجهولة من أقدم المصادر المتعلقة بتاريخ الحركة العباسية ، فدرسها ونشرها أخيراً المستعرب "ب . جرياز نيفتش" . أما في الفلسفة فقد وجد "أ . بوريسوف" قبل الحرب في لينينجراد مخطوطة لها أهمية استثنائية ، وهي نسخة عربية لعلم اللاهوت الشهير الذى نسب إلى أرسطو دون تحقيق .

« وفي طشقند ، منذ دراسة كتب أبى بكر الرازى الكيميائية ، اكتشف المستشرق الأوزبكي "ا . كريموف" مخطوطة بيتمة لكتاب (سر الأسرار) . وعلى أساس مخطوطة فريدة أخرى في لينينجراد^(١) ، كتب "ت . شوموفسكى" رسالة عن الإرشادات البحرية المجهولة لأحمد بن ماجد - القرن الخامس عشر . م - « هذا والاهتمام الكبير لعلمائنا ، وجه إلى دراسة وترجمة المواد الجغرافية والتاريخية عن تاريخ شعوب آسيا الوسطى والقوقاز والمناطق الأخرى السوفيتية التى تعود صلاتها التاريخية والثقافية مع البلاد العربية إلى قرون قديمة . وفي هذا الصدد حُققَت ونشرت عندنا آثار مختلفة ومنها مثلاً : رسالة ابن فضلان عن رحلته إلى منطقة الفولغا - فى القرن العاشر - والرسالة الأولى لأبى دلف الخزرجى عن رحلته إلى آسيا الوسطى والهند والصين . ورسائله الأخرى عن سفره إلى أذربيجان وأرمينيا وجورجيا فى القرن العاشر « . . .

* * *

ولعلمكم تلاحظون معى الاتجاه الواضح إلى العناية بثراث المناطق الآسيوية التى دخلت فى نطاق الاتحاد السوفيتى ، حيث بدت الأهمية القصوى لفهم شعوب تلك الجمهوريات الطارئة التى كانت من قبل أقاليم من الدولة الإسلامية الكبرى .

(١) هى ثلاث أراجيز فى علم البحار ، لأحمد بن ماجد . ولها حديث خاص يأتي بعد ؛ فى : أضواء على تراثنا

والجيل الحالي من مدرسة الاستشراق الروسي ، يوجه طلابه إلى إعداد بحوثهم للدراجات الجامعية العليا ، في مجال التراث الشرقى . فالدكتور شوموفسكى نال درجة الدكتوراه في مخطوط لابن ماجد في علم البحار ، والدكتور بولجاكوف تقدم ببحث في معلومات جغرافية العرب في آسيا الوسطى ، في القرنين التاسع والعاشر . وكان موضوع « أبلجفا فرولوفا » ما في تاريخ ابن الأثير عن ماضي شعوب آسيا الوسطى !

ويهتم معهد الاستشراق في طشقند بتراث علمائنا في أوزباكستان وبخارى وسمرقند وغيرها من أقاليم الشرق الآسيوى . وبما نشر من مخطوطات ذلك التراث الإسلامى ، (كتاب الآثار الباقية) لأبى الريحان البيرونى ، والكتب الأولى من القانون في الطب لابن سينا ، وكذلك رسائله الفلسفية مع البيرونى . . .

وهم يتابعون ما ينشر هنا من تراث تلك المناطق بوجه خاص ، ويترجمون البحوث التاريخية في هذا المجال . وأقرب ما أذكره هنا ، مبادرتهم إلى ترجمة البحث الذى ألقاه أستاذنا أمين الخولى في مؤتمر المستشرقين الدولى بموسكو سنة ١٩٦٠ ، فى « صلات بين النيل والفولجا » ونشرت أكاديمية العلوم هناك ، الترجمة الروسية للبحث ، مع مقدمة للدكتور بيلديايف ، قبل أن يطبع الأصل العربى هنا فى القاهرة ، بثلاث سنوات .

كما نشرت موسكو سنة ١٩٦٦ ، النص العربى لتقريرى عن مجموعة بردى ألبرتينا ، بعد أن ظل عامين هنا لا يجد سبيلا إلى نشره فى مصر ، صاحبة كل هذا البردى^(١) .

وفى انجلترا ، نشرت جامعة أوكسفورد مجموعة محققة من نصوص المخطوطات العربية ، باسم "الكتاب التذكارى للأستاذ جب" ، المستشرق الإنجليزى الكبير . وتتابع المكتبة القومية فى فيينا ، نشر بحوث عن مجموعتها الكبرى للبردى فى « ألبرتينا » وأحدث ما نشرته من هذه البحوث سنة ١٩٦٠ ، الرسائل التى تبودلت بين المستشرق النمساوى كارباتشك ، والتاجر تيودور جراف ، والأمير راينر ،

(١) فيما يلى من (أضواء على تراثنا) ملخص لهذا البحث .

وهم الثلاثة الذين تدين لهم النمسا ، بفضل ظفرها بأكبر وأشهر مجموعة للبردى فى العالم كله .

وتعكف جامعة باليرمو فى صقلية ، على دراسة المخطوطات فى المكتبة الصقلية ، استكمالاً للدور الكبير الذى قام به « المستشرق أمارى » فى هذا المجال . وبلغ من اهتمام الدولة الإيطالية بهذا الموضوع ، أن وجهت الدعوة إلى عدد من الخبراء العرب ، ليسافروا على نفقتها ويدرسوا الآثار الباقية هناك للعرب فى صقلية . وقد كنت من بين الذين وُجِّهت إليهم هذه الدعوة ، كى أتتبع الآثار الأدبية واللغوية . ولست أدري أين وصلت بها الإجراءات الديوانية هنا ، بعد عامين من توجيهها !

ويواصل مركز الاستشراق فى « لَسِيدِن » بهولاندا ، إعداد طبعة جديدة من « دائرة المعارف الإسلامية » .

كما بدأ منذ نحو عشرين عاماً فى متابعة عمل المستشرق الكبير « بروكلمان » واستكمالها من حيث وقف عند عام ١٩٥٤ فى كتابه الشهير الجامع " تاريخ الأدب العربى " وصدر فى عامنا هذا المجلد الأول من امتداد هذا السفر — فى نحو ألف صفحة — مستقصياً تراث العربية والإسلام إلى سنة ٣٤٠ هـ ، بإشراف الخبير التركى « فؤاد سزجين » على أن يتوالى نشر المجلدات الستة تباعاً .

والحديث عن تراثنا فى الغرب المعاصر يطول ، وما أردت بهذا القدر الموجز الذى قدمت منه ، إلا أن أدفع شبهة قد تُوهم أن الغرب الحديث كفى عن الاهتمام بتراثنا ، أو شُغِلَ عنه بسباقه العلمى وصراعه المذهبى . . .

* * *

وبعد ، فإذا كان المجال المحدود لهذه المحاضرات قد قضى بأن نتناول تراثنا بالنظرة العامة التى لا تحيط بأبعاده ، وبالفكرة المجملة التى لا تستوعب دقائق الجزئيات . فلعل فيما أقدم من « أضواء على تراثنا » ملحقة بالمحاضرات ، ما يضيف إلى مجمل الفكرة مزيداً تفصيلياً وبياناً . . .